# بدائع السلك في طبائع الملك

لابي عبدالله ابن الازرق

المتوفى عام ٨٩٦ هـ

## الجزء الأول

تحقيق وتعليق

الدكتور علي سامي النشار

# مقدمة المحقق

اما بعد :

فاني أقدم للمكتبة العربية ، ولاول مرة ، أعظم كتاب في علم الاجتماع السياسي لدى المسلمين ، لقد أثبتت هذه الوثيقة النادرة التي اقدمها اليوم للقاريء الانساني ، صحة ما اعلنته منذ سنوات خلال عملي الجامعي الطويل في جامعة الاسكندرية ، ان عبدالرحمن بن خلدون «في مقدمته المشهورة» لم يكن سوى حلقة في سلسلة طويلة ، ولم يكن سوى غصن في شجرة باسقة ، هي سلسلة الفكر الاسلامي المتكامل ، وشجرة التراث الاشعري اليانع •

ما من فكرة أو نتيجة توصل اليها ، الا ونجدها لدى السابقين من مفكري الاسلام : الدولة والعصبية والعوارض الذاتية ، نجدها من قبل في الشوكة لدى المسعودي والغزالي « وعوارض السياسة » لدى الماوردي وغيره من مفكري الاشاعرة ، وحوادث التاريخ وعوارضه لدى من سبقه من مؤرخين متعددين وما من نتيجة أو مسلمة توصل اليها ، والا نجد لها مثيلا من قبل • وقررت أيضا انه طبق على هذا كله المنهج الاستقرائي الاسلامي الذي نضج من قبل لدى الاصوليين والمتكلمين والفقهاء • لم يكن ابن خلدون العبقرية الوحيدة ، و « الظاهرة الفريدة » ، في الفكر الاسلامي • بل كانت له براعته المنهجية ، واصالته الخاصة ، ولكن كواحد من المفكرين أو كعضو في أسرة كبيرة ، تضافرت على اقامة حضارة اسلامية وفكر اسلامي في شتى المجالات • كان ابن خلدون «مسبوقا» وها هو ذا البرهان القاطع انه لم يكن عبقرية فريدة ، وانبثاقا عن عوامل خاصة ، وانه لم يكن ظاهرة وحيدة • ها هو ذا الدليل على انه كان ايضا «ملحوقا» • وان استمرارية المدرسة الاشعرية في علم الاجتماع السياسي وفي تطبيق المنهج الاستقرائي التجريبي على الظواهر الاجتماعية والسياسية والاخلاقية انما هو حقيقة مؤكدة •وذلك حين نكشف

الغبار الذي تكاثف وحجب الرؤية عن مفكر اجتماع سياسي من اكبر مفكري الاسلام وهو ابو عبدالله محمد بن علي المشهور بابن الازرق في كتابه (بدائع السلك في طبائع الملك) • وهو الكتاب الذي نقدمه اليوم للباحثين ، وهو كتاب لا يقل في تكامله ، ولا في منهجيته عن مقدمة ابن خلدون • وسيرى القارىء ، انه وان كان ابن الازرق قد استند على مقدمة ابن خلدون ، وهي لازمة منهجية لمفكر توفى بعد ثمانين سنة من وفاة ابن خلدون ، غير انه خطا ،بالنظريات الاجتماعية السياسية لدى المسلمين ، خطوات اوسع ، ووصل بهذه النظريات ، الى مرحلة نضج ،ومزج بين نظريات ابن خلدون ونظريات أخرى سياسية اسلامية ، تستند على اتجاه آخر ، يخالف اتجاه ابن خلدون السياسي البحت ، وهو علم الاخلاق السياسي ، وهو علم لم يحظ عند ابن خلدون بمكانة واسعة ،ورأى ابن الازرق ان يضع له مكانا في علم الاجتماع السياسي ، فحاول ان يوفق بين نظريات ابن خلدون ، ونظريات ابن رضوان والطرطوشي • كما اننا لا نستطيع ان ننسى وسيتبين هذا للقارىء ان كتاب ابن الازرق ، يكشف لنا عن مصادر مقدمة ابن خلدون ، فبينما كان ابن خلدون «كتوما» الى اكبر حد ، يستخدم نظريات غيره ، ويستند على مآخذ متعددة لا يذكر صاحبها ، ويدل بنفسه ، على اول من توصل اليها ، نرى ابن الازرق ، وهو اولا وقبل كل شيء فقيه اخلاقي ، وراوية حديث متثبت ، وقاض من قضاة المسلمين، يذكر مصادره بأمانة وصدق ، ولا يكتم مآخذه ولا منابعه ، أو بمعنى ادق يعطي لكل ذي حق حقه ، ويعبر عن آرائه هو بالصيغة المشهورة (قلت) بل ما اكثر ما ذكر حتى في (قلت) هذه مصادره هو نفسه •

# إبن الأزرق ـ حياته وعصره

اما اسمه الكامل فهو محمد بن علي بن محمد بن علي بن قاسم بن مسعود ابو عبدالله الاصبحي الغرناطي الاصل المالقي الوادي آشي ويعرف بابن الازرق[1] ولسنا نعرف كثيرا عن ابويه ولا عن اسرته ،ولكن يبدو انه عربي ، وانه من اسرة اندلسية قديمة ، وان ابن الازرق اوالازرق انما هي صفة جسدية قد لازمته او لازمت اسرته • ولا صلة له ولا لاسرته بابناء الازارقة من المشارقة وقد اشتهر العدد الكبير منهم في المشرق كمؤرخين ومحدثين • ومن المحتمل ان لاسرته صلات بفاس ، وما زالت بها حتى الان أسرة الازرق • وقد ولد ابن الازرق بمالقة سنة ٨٣٢ هـ ـ ١٤٢٧ م اي بعد وفاة ابن خلدون بعشرين سنة وفي مالقة لا في قرطبة ، كما ذكر الاستاذ حسن السائح ، نشأ وحفظ القرآن وغيره • ويذكر السخاوي انه تلا لابن كثير على قاضيها ابن اسحاق ابراهيم بن احمد البدري[2] ونافع على ابي عمر محمد بن ابي بكر بن منظور[3] والخطيب ابي عبدالله محمد بن ابي الظاهر بن محمد بن ابي بكر الفهري وعنه اخذ مبادىء العربية والفقه والفرائض • وكذا اخذ عن الاولين العربية والفرائض ، وعن ثانيهما الفقه والحساب[4] •

ومن الواضح انه انتقل بعدها الى غرناطة ، واخذ يدرس فيها على أكبر

---

(١) السخاوي : الضوء اللامع ، جـ٩ ص ٢٠ـ٢١ ، وابن القاضي : درة الحجال ، جـ١ ص٢٢٩ . ونفح الطيب ، جـ٢ ٦٩٩ . الاستاذ حسن السايح : ابن الازرق شارح ابن خلدون ( في دعوة الحق العدد الثالث ـ السنة العاشرة رمضان ١٣٨٦ ـ يناير ١٩٦٧ ) .

(٣) أبو عمرو بن منظور قاضي الجماعة بغرناطة وممن أخذوا عن أبي القاسم محمد بن السراج وتوفي ابن السراج عام ٨٤٨ هـ .

(٣) أبو عمرو بن منذور قاضي الجماعة بغرناطة وممن أخذوا عن أبي القاسم محمد بن السراج وتوفي بن السراج عام ٨٤٨هـ .

(٤) السخاوي : الضوء اللامع ، جـ ٩ ص ٢٠ .

اساتذته ابراهيم بن احمد بن فتوح مفتي غرناطة : النحو والفقه والاصلين والمنطق . ويذكر السخاوي (كان جل انتفاعه به) .

ثم يذكر انه قرأ على قاضي الجماعة ابي يحيى بن محمد بن ابي بكر بن عاصم « فأنه جالسه كثيرا وانتفع به » .

ثم حضر مجالس ابي عبدالله محمد بن محمد السرقسطي، وكان احد العلماء الكبار المشهورين بالزهد ، وكذا مجالس الخطيب ابي الفرج عبدالله بن احمد البقني والشريف قاضي الجماعة ابي العباس احمد بن ابي يحيى بن ابي عبدالله التلمساني الشارح جده لجمل الخونجي والذي اشتهر جده ابو عبدالله الشريف التلمساني بتدريسه للمنطق وللفلسفة ، والخطيب المفتي ابي عبدالله محمد بن يوسف بن المواق العبدري ، ودرس الادب على الامام محمد بن زكريا بن الجبير اليحصبي احد اعلام المتأخرين بالاندلس[٥] ويبدو انه لم يكتف بهذا ، بل رحل الى فاس وتلمسان وتونس ، وتلك في رحلته الاولى ،ودرس على علماء تلك البلاد .

ويقول السخاوي : انه قرأ علاة آخرين لقيهم بفاس وتلمسان وتونس[٦] .

تلك هي حصيلة دراسته ، يتبين فيها انه درس العلوم الاسلامية التي كانت في عصره ، وانه انتفع بعدد كبير من علماء المغرب ، ولم يتنبه الباحثون ممن كتبوا عنه اخيرا الى رحلته هذه في طلب العلم الى فاس وتلمسان وتونس ومن المحتمل كثيرا ان واحدا من اساتذته وجهه ايضا الى دراسة مقدمة ابن خلدون وتفحصها ، وبخاصة انه درس في تلمسان وتونس ولا شك ان ابن خلدون كان قد ارسل نسخته الشهيرة من المقدمة الموسومة باسم الفارسية الى السلطان ابي فارس . ومن المؤكد انها كانت محفوظة في خزانة القصر الملكي بتونس . وانها انتشرت في البلاد التونسية . وكان قد مضى على ارسالها ومجيء ابن الازرق قرابة عشرين عاما . ومن المؤكد انه كان بين

---

(٥) المقري : ازهار الرياض في اخبار عياض الجزء الثالث ، ص٣٠٢-٣٠٤ .
(٦) السخاوي : الضوء اللامع ، جـ٩ ص٢١ .

يدي ابن الازرق نسخة كاملة صحيحة من المقدمة ،ويتبين هذا في دراسة كتابه الذي ننشره .

وعاد الرجل الى وطنه ، وولى قضاء غربي مالقة في ايام سعد بن علي بن يوسف بن نصر صاحب الاندلس حينئذ(٧) ثم قضاء مالقة نفسها عن ابي عبدالله محمد بن سعد ، ثم قضاء وادي آش عن اخيه علي بن سعد ، ثم نقله الى مالقة ثانية واخيرا عينه السلطان ابو الحسن قاضي الجماعة بغرناطة . ومات السلطان وهو على قضائها ، وأقره اخوه ابو عبدالله ، واشتد حصار النصارى على غرناطة ونزل الطاغية في مرجها ، فخرج معه السلطان الى وادي ياشي .ومن هناك انفصلا . ورأى ابن الازرق كقاضي الجماعة ان الفتنة بين الملوك النصريين قد انهكت المسلمين واضعفت من شوكتهم فقرر ان يتوجه الى ملوك المسلمين ، ان يتوجه الى العالم العربي ، ليستنصر ملوك الاسلام وامراءهم ، لانقاذ غرناطة ومساعدة الاندلس في محنتها الاخيرة(٨) . ولا نعرف هل قلده السلطان حينئذ الكتابة والحجابة او الرسالة .

ويرى الاستاذ الدكتور عبدالهادي التازي ان ابن الازرق لم يكن « فقط رجل وظيف شرعي ولكنه رجل دولة ، وكاتب ملك ورسول سلطان وان سلطان بني نصر يؤثره باسرار لا يبثها الى قاضي الجماعة » ويستدل الدكتور التازي على هذا بنظم شعري لابن الازرق يخاطب به شيخه ابا القاسم بن سراج، وقد طلب اليه هذا الاخير ان يجتمع به في ظروف اضطراب مؤملا ان يحصل منه على سر من اسرار السلطان يقول ابن الازرق :

فديتك لاتسأل عن السر كاتبا ... فتلقاه في حال من الرشد عاطل
وتضطره اما لحالة خائن ... أمانته او خائض في الاباطل
فلا فرق عندي بين قاض وكاتب ... وشى ذا بحق أو قضى ذا بباطل

---

(٧) سعد بن علي بن يوسف بن الاحمر صاحب غرناطة وتوابعها ، كان يلقب بأمير المسلمين المستعين بالله وهو ثامن عشر سلاطين الدولة النصرية . الضوء اللامع ، ج ٣ ص ٢٤٨ . ونظم العقيان ١١٧ . والاعلام الجزء الثالث ص ١٣٦ .

(٨) انظر اخبار تلك الفترة والنزاع بين الامراء النصريين في نفح الطيب ، ج ٤ ص ٥١٠-٥٢٩ .

وينتهي الدكتور التازي الى ان ابن الازرق كان اذا كاتبا أي وزيرا وانه كان رسولا للسلطان بعد ذلك(٩) ، علاوة على موقف ابن الازرق من الفتنة التي قامت على السلطان ابي الحسن النصري ، ونكثت الناس بيعته وبايعوا عوضه ابنه محمدا ، تدخل ابن الازرق وابن المواق وسائر فقهاء غرناطة . واصدروا فتوى تشجب الناكثين وذلك في عام ٨٨٩ هـ .

ومن الملاحظ ان ابن الازرق كتب في كتابه صفحات طوالا عن الكاتب والحاجب والرسول ، وعن ادابهم وعملهم .

ومن الخطأ القول انه توجه من غرناطة الى تلمسان مباشرة . ان من المحتم ان يتوجه الى فاس اولا . ولم يتنبه الباحثون ممن كتبوا عنه الى رحلته هذه الى فاس ،وقد ارخ لنا في بدائع السلك هذه الرحلة حين قال : انه شهد الخراب بنفسه في فاس حين كان الوطاسيون ياخذونها من الشريف العمراني . وفي هذه الفترة بالذات كانت الحروب والفتن الداخلية تعتصر فاس اعتصارا . ورأى الرسول أي ابن الازرق ان الامل في استنفار ملوك فاس هؤلاء وكانوا يقاتلون بعضهم بعضا .

ورحل الى تلمسان ، لكي يطلب العون من السلطان ابي عمرو عثمان ابن محمد بن ابي فارس لمعاونة الاندلسيين في محنتهم النهائية ولم يلبث ان مات ابو عمرو ومن المعروف ان السلطان ابا عمرو عثمان توفي في اواخر رمضان سنة ٨٩٣هـ . وحينئذ يكون وصول ابن الازرق الى تلمسان في هذا العام او في العام الذي سبق اي سنة ٨٩٢ هـ . وحدثت الفتنة في تونس بعد وفاة السلطان ابي عمرو عثمان واختلاف ابي زكريا يحيى حفيد ابي عمرو عثمان مع ابن عمه ابي محمد عبدالمؤمن .ويئس ابن الازرق ورأى للمرة الثانية ، فشله في مهمته(١٠) .

---

(٩) الدكتور عبدالهادي التازي ، مع ابن الازرق ، دعوة الحق ، العدد السابع السنة العاشرة .

(١٠) الحلل السندسية ، ج٤ ص ١٠٨٩ ـ ١٠٩٠ .

وراى ابن الازرق ان يلجأ الى مصر • فدخلها • واتصل بالسلطان قايتباي سلطان مصر ، واستنهض عزائمه لاسترجاع الاندلس • ولكن السلطان كان في شغل شاغل في نزاعه مع الروم من ناحية ومع الاتراك العثمانيين من ناحية اخرى ،فكان كمن يطلب بيض الانوق او الابيض العقوق[11] •

ثم سافر ابن الازرق بحرا الى الحج • ويحدد السخاوي ، وقد عرف ابن الازرق عن كثب وقابله ، تاريخ حجه في سنة ثمانمائة وخمس وتسعين • وذكر أنه أقام في المدينة أربعة أشهر ، ثم بمكة شهرين ، ثم عاد بعد حجه الى مصر في البحر أيضا ، فدخلها في منتصف ربيع الاخـر سنة ٨٩٦ هـ • ونزل بتربة السلطان عند أحمد بن عاشر • ويبدو أنه بدأ يجدد الكلام في انقـاذ الاندلس ولكنهم لم يستجيبوا له ، وسعى له لدى السلطان في ولايـة قضاء القدس ، وفي هذه الاثناء قابله السخاوي : يقول « وقصدني في أثناء ذلك ، ورأيته من رجالات الدهر ، وأظهر الاغتباط باجتماعه بي ، وطالع بعـض تصانيفي وغيرها » •

وفي الثاني من رمضان من نفس السنة سافر الى القدس ، قاضيا عليها • ووصل الى القدس في سابع عشر شوال ، وتولى القضاء بها بنزاهة وشرف وطهارة • يقول صاحب الانس الجليل : « وكان يتعاطى الاحكام الشرعية بعفة ونزاهة من غير تناول من الناس » •

ولكنه مرض مرضا دام نحو اربعين يوما ثم فاضت روحـه في يوم الجمعة سابع عشر ذي الحجة سنة ٨٩٦ هـ وكثر الاسف على فقده • ودفن خارج باب خان الطاهر بالقدس[12] • وقد توفي قايتبـاى في نفس السنة وسقطت غرناطة عام ٨٩٧ هـ •

**اساتذتـه**

ذكرنا من قبل على وجه الاجمال اساتذة ابن الازرق . ونعود الان ـ

---

(١١) نفح الطيب جـ ٢ ص ٧٠٢ .

(١٢) عبدالرحمن بن مجير الدين الحنبلي ( المتوفي سنة ٩٢٧ هـ ) : كتاب الانس الجليل في تاريخ القدس والخليل ، ٥٥٧ـ٥٥٨ .

فنتكلم تفصيلا عن كل منهم ، ونعرض لمدى استفادتـه منهم : اما اولهـم اهمية فهو •

اولا : الامام ابو اسحاق ابراهيم بن فتوح المتوفي سنة٨٦٧هـ ،ويبدو انه اثر في ابن الازرق اشد تأثير ، ويذكره ابن الازرق باحترام كبير ، ويعرض طريقته في التعليم والتلقين :

وهي طريقة الحوار الدقيق بين الاستاذ والطالب ، واعطاء الطالب حرية مخالفة استاذه اذا كان هنـاك بين يدي الطالب وجـه ودليل قائم يقبل غير الشيخ من العلماء• يقول ولقد كان شيخنا العلامة ابو اسحاق ابراهيم بن احمد بن فتوح قدس الله تعالى روحه ، يفسح لصاحب البحث مجالا رحبا ويوسع المراجع له رحبا وقبولا بل يطالب بذلك ويقتضيه • ويختار طريق التعليم به ويرتضيه ، توقيفا على ما خلص له تحقيقه ، ووضح له في معيار الاختيار تدقيقه والا فقد كان ما يلقيه غاية ما يتحصل ، ويتعهد به مختار ما يحفظ ويتأجل •

ولكن لا ينبغي ان يكون جدل الاستاذ والتلميذ مؤديا الى الاطالة والتعسف في الحوار والا ادى هذا الى الميل والضجر « ويفضى الحال الى ما ينهى عنه» •

ان مخالفة التلميذ للشيخ ، اذا كان لها وجه وعليها دليل ليس من سوء أدب التلميذ مع الشيخ ، على ان يصحبها من التلميذ للاستاذ توقير دائم ، واجلال ملائم ،«وقد خالف صغار الصحابة ، كبار الصحابة» وخالف بعض التابعين الصحابة من اساتذتهم ، وممن اخذوا العلم عنهم ،وخالف مالك كثيرا من اشياخه وخالف مالكا كثير من تلاميذه • فخالفـه الشافعي وكان الشافعي يقول : لا احد علي احسن من مالك • يقول ابن الازرق وكاد كل من اخذ العلم ان يخالفه بعض تلامذته في عدة مسائل • ولم يزل ذلك دأب التلاميذ مع الاساتيذ الى زماننا هذا • وشهدنا ذلك في اشياخنا مع اشياخهم رحمهم الله •ولا ينبغي للشيخ ان يتبرم من هذه المخالفة اذا كانت على الوجه الذي وصفناه[١٢] •

---

(١٢) المقري : نفح الطيب ، جـ ٢ ص ٧٠٠-٧٠١ .